«أقـــومُ وأمـــضـــي إلى أبـــي...»

(لو١٥/١٨)

رسالة راعي أبرشيّة أنطلياس المارونيّة
سـيـادة المـطـران أنـطـوان بو نـجـم
إلى الكهنة والمؤمنات والمؤمنين
بمناسبة بداية السّنة الطقسيّة ٢٠٢٤-٢٠٢٥

بعنوان:

«في سر التوبة نعود الى الشركة مع الله ومع بعضنا البعض»

قـــرنة شـــهوان
تشرين الثاني ٢٠٢٤

رسالة راعي أبرشيّة أنطلياس المارونيّة
سـيـادة المـطـران أنـطـوان بو نـجـم
إلى الكهنة والمؤمنات والمؤمنين
بمناسبة بداية السّنة الطقسيّة ٢٠٢٤-٢٠٢٥

بعنوان:
«في سر التوبة نعود إلى الشركة مع الله ومع بعضنا البعض»

«أقومُ وأمضي إلى أبي...»
(لو ١٥/١٨)

يُعطينا الـربّ يسـوع مثـلَ الإبن الشـاطر الذي قـرّر بمـلء حريّته وإرادتـه أن يبتعد عـن البيت الوالـديّ فعـاش بؤسًـا وذلاً لم يُمحِـهُما إلاّ عنـاقُ أبيـه الـذي ظـلّ منتظرًا بشـوقٍ عـودة إبنه، كي نُـدركَ أنّ ثمـنَ الخطيئـة، أي الانفصـال عـن الله، هـو الموت كما يقـول القدّيس بولـس في روما ٦/ ٢٣: «أُجْـرَةُ الـخَطِيئَةِ هِـيَ الـمَوت». والمـوت ليـس بـالضرورة أن يكـون جسـديًا. لقد مات الإبـن الشّـاطر روحيًـا ونفسـيًا وعلائقيًـا وإجتماعيًا. كـم من الخطـأة في أيّامنا المعـاصرة يموتون الميتةَ نفسـها؟

والخطيئـة هـي أوّلاً ذات طبيعـة لاهوتيّـة قبـل أن تكون أمـرًا آخرًا. إنهـا رفضُ الله، واسـتبعاده مـن حياتنـا وهـذا الإسـتبعاد يظهر في عالمنا مـن خلال اللامبالاة التي نعيشـها تجاهـه، هو الذي يهتـمّ فينـا ويحبّنـا. لا نحصرنّ الخطيئة بأخطـاءٍ أخلاقيّة أو أعمالٍ سـيئة، بل لنـدرك جميعًا أنّها محـوُ الله مـن إهتماماتنـا اليوميّة، ورفـض الدّخول في شركـة المحبّة معه ومـع الآخرين.

توبـة الإبـن الشـاطر وندامتـه سـببهما الفـراغ الـذي عاشـه والحالـة المزريـة التـي وصـل إليها وثقتـه بـأنّ أبـاه سيسـتقبله لأنـه يحبّه... هـذه التوبة أعـادت إليـه الحيـاة والمسـتقبل. كلُّ توبةٍ تُعيـد إلينـا الحيـاة والفـرح وتفتح أمامنـا باب المسـتقبل.

قـرّرت أن أكتـب إليكـم هـذه الرسـالة، أحبّائي، مـع مطلع هذه السّـنة الطقسـيّة، عـن موضوع التوبـة لأني أعـرف أن لـدى الكثيريـن منكـم شـعورٌ بإنعـدام الفـرح وضيـاع المسـتقبل ويباس الحيـاة ولكنـي أعـرف أيضًا أنّ فرحنـا يكتمل عندمـا نعيش بصحبة المسـيح، عندمـا نعود اليه كلّ مـرّةٍ تجرفنـا الخطيئـة نحو مسـالك مهلكة.

١. تحديد وتصويب بعض التعابير

أودّ أوّلاً أن أُصـوّب معـاني ومفاهيـم بعـض التعـابير التـي نسـتعملها في اللاهـوت عـن موضوع سرّ التوبـة وهـي كـثيرة نظـرًا لأن الـربّ من خلال هـذا السّر يُظهر لنـا محبّته العظمـى وغفرانه اللامتناهـي بطـرقٍ مختلفة:

- «النّـدم»: لتوضيـح هـذا المفهـوم الروحـيّ أقتطف مـا قالـه قداسـة البابا فرنسـيس في عظة قـدّاس الميرون المقـدّس يـوم خميـس الأسرار (٢٨ آذار ٢٠٢٤): «النـدم ليس شـعورًا بالذّنب يلقـي بنـا أرضًـا، ولا هـو وسـواس الخطيئـة الذي يَشُـلّنا، بـل هو نَخـزَة مفيـدة في الدّاخل تحـرق وتشـفي، لأنّ قلبنـا عندمـا يـرى الشّرّ الـذي اقترفـه ويـعترف بأنّـه خاطـئ، فإنّـه ينفتـح، ويقبـل عمـل الـرّوح القـدس، والماء الحـيّ الـذي يحرّكـه، فيجعل الدّمـوع تنهمر على وجهـه... إنّ الـذي يزيـل القنـاع عن وجهـه ويترك نظرة اللـه تخترق قلبه، ينـال عطيّة هـذه الدّمـوع، وهـي أقدس ميـاه بعـد ميـاه المعموديّة».

- «التوبـة»: تـشير إلى الإرادة الثّابتـة في التغـيير وإصلاح المـسيرة والإرتـداد نحـو اللـه. إنهـا اللحظـة الحاسـمة في مـسيرة التحـرّر الروحـيّ.

- «الإعتراف»: هـو أن نعلـن أمـام الكاهـن ممثّل المسـيح، بعـد فحص الضمير، بصـدقٍ ودون خـوف، الخطايـا والآثـام التـي اقترفناهـا راجين نـوال المغفـرة والخلاص.

- «المصالحـة»: تعـبير جميـل يُـشير إلى وجـود شـخصَين. الشـخص الاوّل هـو اللـه وهـو مَن يرغـب أن يصالحنـا ويمنـح الشّـخص الثـاني، أي الإنسـان الـذي يقبـل مغفرتـه، القـوّةَ للتصالـح معـه ومـع كنيسـته، ومـع إخوتـه وأخواتـه وحتـى مـع الطّبيعـة.

- «المغفـرة»: تذكّرنـا أنّ اللـه، مـن خلال إبنـه المصلـوب والقائـم مـن المـوت، ومـن خلال وسـاطة الكنيسـة والكاهـن، هو الذي يغفـر مجّانًا، مـن دون أي شرطٍ، ويعطـي القوّة «لكي نغفـر بدورنـا لمـن أسـاء إلينا».

إن سرّ التّوبة هو «سرّ الخلاص المجّانيّ». فليس هو مكافأة بل هبة مجّانية لا تُقاس باستحقاقنا (روم ٨/٥). هو «سرّ السلام» لأنه يهبنا السّلام الداخليّ بحيث نشعر بأن حمل الخطيئة زال عن نفوسنا، وعاد الأمان إلينا واستقرّت الطمأنينة في علاقاتنا مع الآخرين. هو أيضًا سرُّ الشّفاء كما يقول البابا فرنسيس إذ «عندما أذهب لكي أعترف، أنما أذهب لكي أنال الشّفاء، الشّفاء الرّوحيّ، ولكي أخرج بمزيدٍ من الصّحة الرّوحيّة وأنتقل من البؤس إلى الرّحمة» (نيّة شهر آذار ٢٠٢١).

٢. رحمة الله أكبر من خطيئتنا

لقد خلقنا الله أحرارًا وزوّدنا بكلّ الخيرات التي نحتاجها لنعيش حياة سعيدة، في شركة معه ومع الآخرين. وعلى الرغم من عصياننا المتكرّر، ورغم رفضنا له وإنكاره أحيانًا في بعض مواقف حياتنا الصعبة، إلا أنه يظلُّ منفتحًا على أبنائه كما فعل الأب في مثل الإبن الشّاطر وهو مستعدٌّ لإنقاذنا من ضياعنا وغربتنا لأنه «لا يريد موت الخاطئ، بل أن يرجع ويحيا» (حز ١٨/ ٣٢).

غير أنّ الكثيرين منا اليوم فقدوا حِسَّ الخطيئة وأدّى ذلك بهم إلى فقدان الحاجة إلى الخلاص، وبالتالي إلى نسيان الله باللامبالاة كما ذكرنا سابقًا. أما الله فيبقى ثابتًا على رحمته بل إنه الرّحمة بحدّ ذاتها وطبيعته لا تتغير. هو الإنسان الذي، وبسبب ثقل خطيئته، يجد صعوبة في قبول رحمة الله وهذا الموقف يشكّل عائقًا أمام التّغيير الحقيقيّ والتوبة. الله يغفر دومًا لكلّ من يعود إليه، لكن قبل طلب رحمة الآب، نحن مدعوّون لأن نعي خطيئتنا ونقرّ بها: هل ندرك فعلاً أننا نخطأ تجاه الله وتجاه القريب؟

تشكّل الأزمات المتتاليّة والحرب المشؤومة التي نعيش فرصةً لنا للقيام بفحص ضميرٍ جدّي - وهذا مطلوبٌ منّا يوميًّا - يقودنا إلى القرار الصحيح أي الاعتراف بخطايانا والتوجّه سريعًا نحو الآب السماوي بروح الندامة وطلب المغفرة منه. هو بالتأكيد سيغفر لنا، لأن محبّته ورحمته أعظم من كلّ خطايانا وقد قال لنا بلسان النبي آشعيا: «لو كانَت خَطاياكم كالقِرمِزِ تَبيَضُّ كالثلْج ولو كانَت حَمْراءَ كالأُرجُوان تَصيرُ كالصُّوف» (آش ١/ ١٨). مغفرة الخطايا هي أوّلاً عطيّة وهبة منه كما يقول القدّيس بولس: «خَلَّصَنَا، لا بِأَعْمَالٍ بِرٍّ عَمِلْنَاهَا، بَلْ وَفْقَ رَحْمَتِهِ، بِغَسْلِ المِيلادِ الثَّانِي، وتَجْدِيدِ الرُّوحِ القُدُس» (طي ٣/ ٥). هذه الهبة تلتقي مع الجهد الشخصيّ المطلوب منّا جميعًا، أن نقوم به للإرتداد عن الأعمال السيّئة، على أن نحرص أن «نأخذ زيتًا في آنيتنا»، غير متّكلين على مَن يُعطينا من زيته وأعماله وإيمانه ساعة لقاء العريس!

لقد انتصر يسوع على الشرِّ والخطيئة من على الصليب وانتصاره هذا هو تعبير عن رحمة الله تجاهنا، حيث صرخ لأبيه: «إغفر لهم يا أبتاه لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون» (لو ٢٣/ ٣٤). إنتصاره تجسيد لحقيقة أنّ «المحبّة أقوى من الخطيئة». ورحمة المسيح نفسها زرعها الله فينا نهجًا يملك على قلوبِنا ويوجّه مشاعرنا وتصرّفاتنا أمام ضعف الإنسان وشروره عن الله.

لذلك نحن مدعوون أن نرحمَ كما رُحمنا. فبالرحمة والغفران المتبادل يتحقق السّلام ويعمّ السّكونُ القلوبَ والنفوس. لا نكوننّ مثل الأخ الأكبر في مثل الإبن الشّاطر! إن انتماءنا إلى الكنيسة يجعل كلاً منا «سفير» المصالحة (٢ قور ٥/ ٢٠) كما يجعل منا جميعًا «شعب المصالحة» مسؤولين عن الشهادة للعالم بأن المغفرة ممكنة، ملتزمين برسالة إعلان هذه البشرى السّارّة لرحمة الله المحقّقة في يسوع المسيح، بالأقوال والأفعال.

٣. لنأتِ إلى كرسي الحبّ، إلى كرسي الإعتراف

من علامات التّوبة الحقيقيّة هو الذهاب إلى كرسيّ الاعتراف. إلى إخوتي وأخواتي أبناء وبنات الأبرشيّة، أشجّعكم أن تأتوا إلى كرسيّ الإعتراف كي تتذوّقوا محبة الله اللامتناهية. هذا الكرسيّ هو الباب الحقيقيّ للعودة من جديد والدخول في الكنيسة «الجماعة». أدخلوا من هذا الباب في السّنة اليوبيليّة. إنه الباب المقدّس الأساسيّ لخلاص نفوسكم. عندما نخطأ نصبح خارج الجماعة وفي سرّ التوبة يعود الكاهن فيفتح لنا بإسم يسوع الباب إلى الإخوّة.

يمكنكم أن تفحصوا ضميركم مباشرةً أمام الربّ وهو يعرف نوايا قلوبكم الحقيقيّة طبعًا، غير أن الإعتراف عند الكاهن يشكّل وسيلةً لوضع حياتكم بين يدَي وفي قلب شخصٍ آخر يتصرّف بإسم يسوع وينقل لكم حبَّه، فالكاهن يتمتّع بسلطانٍ الربط والحلّ من الربّ، بارتباطه المباشر بالرّسل من خلال سرّ الكهنوت الذي ناله من قبل الكنيسة التي كان صخرتها بطرس، وأعطى يسوع هذا السلطان لرسله قائلاً: «الحَقَّ أَقولُ لَكم: ما رَبطتُم في الأَرضِ رُبِطَ في السَّماء، وما حَلَلتُم في الأَرضِ حُلَّ في السَّماء» (متّى١٨/١٨). أمام الكاهن تصبحون حقيقيّين تواجهون واقعكم من خلال النظر إلى شخصٍ آخر، وليس إلى شخص ذاتكم منعكسٍ في المرآة.

لا تيأسوا من طلب المغفرة من الرّبّ قائلين في نفوسكم: «هل لا يزال يسامحني ويغفر لي؟». نعم، سيغفر لكم بالتأكيد ! جميل هذا الشعور بالتواضع عندما نخطأ، فالتواضع هو نعمة يجب أن نطلبها من الربّ لأنه وسيلة جيّدة وإيجابيّة تجعلنا نشبه يسوع الوديع والمتواضع القلب.

وإلى إخـوتي الكهنـة أقـول لكـم أن تأتـوا أنتم أيضًـا إلى كرسي الإعتراف مـن جِهتَيهـا: ركوعًا في الأمـام قبـل الجلـوس خلفهـا. إن لم تتذوّقـوا رحمة الـربّ لكم في وسـط آثامكم فلـن تعرفوا أن تنقلـوا فرح الغفـران إلى التّائـبين الذين يأتون إليكم سـاجدين، نادمين... في كـرسي الإعتراف، نحـن، الكهنـة، لسـنا قضـاة ولا جلاّديـن، إنمـا نحـن ناقلـو حنـان اللـه. في كـرسي الإعتراف نحـن نمثّـل اللـه الحنّـان ولكنّنـا أيضًا نمثّـل الجماعة المسـتعدّة لقبـول التائبين والفَرِحـة لعودة البعيدين.

٤. خاتمة

أحبّائي،
تعيـش الكنيسـة منذ ٢٠٢١ مـسيرة سينودسـيّة تفكّر خلالها في دعوتها الرسـاليّة: كنيسـة الألفيّة الثالثـة هـي سينودسـيّة في هويّتهـا وطبيعتها ونظامها. هـذا النفس السـينودسيّ يتطلّـب منّا توبة صادقـة وحقيقيّـة على صعيـد الأشـخاص كما على صعيـد المؤسّسـات. نحن مدعـوّون أن ندخل في ديناميكيّـة فصحيّـة بحيـث نموت عن الـ«أنـا» كي نقـوم إلى الـ«نحن». وهذا مـا يدفعنا للعودة إلى الـصلاة الأولى والأعمـق التـي علّمهـا يسـوع لتلاميـذه «إغفر لنـا كما نحن نغفـر» والإلتزام بهـا طريقًـا نمشـيه معًـا مـن أجل شـهادةٍ حيّـة لمحبّة المسـيح وفرحـه في عـالم يتخبّـط في الحقد ويسـوده الحزن.

تعالـوا في هـذه السـنة اليوبيليّـة إلى الغفـران المتبـادل سـبيلنا الوحيـد إلى الـسّلام والطمأنينـة والفـرح فنصبـح حجّاجًـا للرجـاء في بيوتنـا ورعايانـا ومؤسّسـاتنا ووطننـا.

+ المطران أنطوان بو نجم
راعي أبرشيّة أنطلياس المارونيّة